الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أوَّليَّتها إلى موت ابن نَغْزالَة

١٥ - أوَّلِيَّة إمارة باديس بن حَبُوس

وتعاظُم الوزير اليهودىّ أبى إبراهيم

وولـى الأمـر مـن بعده جدُّنـا باديـس – نضَّـر الله وَجْهَـه – فحـاوَلَ أُمـوراً كباراً، وشَـقِيَ * [ق ١٢ ب] مع كلِّ أُمَّـةٍ: صِنْهاجة يطلبون مكانه مع يَدَّيْر، وسـلاطينُ الأندلُس يرمُون بلاده؛ وهو فى ذلك كلِّه حسنُ السياسة، صبورٌ على الأذِيَّة.

وكان أبو إبراهيم اليهودىُّ كاتباً بين يدى أبى العبَّاس كاتب حَبُوس. ولمَّا توفِّى أبو العبّاس المذكور، وترك بَنِينَ، أقام حَبُوس – رحمه الله – أكبَرَهم عِوَضاً من أبيه، واسـتعمله مكانه. وكان فى الابن صبوةٌ لا يرتبط معها إلى خدمة الرياسة؛ فمكر به أبو إبراهيم اليهودىُّ، ولزم خدمـة الرئيـس، وصـار، متى عاب وَلَـدُ أبى العبَّاس، يحضـر أبو إبراهيم؛ فيسـأل عنه حَبُوس؛ فيقول، معتـذراً فـى الظاهر ومطالباً له فـى لَحْن القول: «وَلَدُ أبـى العبّاس، كما ترى، صبـىٌّ يُؤْثِـر الراحة؛ وأنـت جديرٌ بالإغضاءِ عليـه وإقامةِ عذره. وأنـا عَبْدُه، أنوبُ منابَه؛ فمُرْنى بما شـئْتَ: يتهيَّأ ذلك!» فلم يزل على هذا أبدًا حتّى تمكّن، وظهرت خدمتُه وسَعْيُه فى ضمِّ الأموال.

وكان مع هذا قد ميَّز عن باديس سعادتَه ودهاءه؛ فافترض السَّعْىَ له والتخدُّمَ لإرادته مادَامَ أَمْكَنَهُ ذلك، فى وقت المناوِينَ له والقائمين عليه، للذى قدَّر من أيّامه معه.

فلمّا اتَّفق أعداؤُه مع يَدَّيْر عليه، شاركوا فى ذلك أبا إبراهيم، واجتمعوا فى منزله، يرومون قَتْلَ باديس وإقامة يَدَّيْر، وَعَدَهم على الاجتماع عنده. وتقدَّم إلى باديس، وأخبره الخبر، وأتى معـه إلـى المنزل، وقال له: «ليس الخبر كالعيان! اسـمَع بأُذُنِـك وَعِ بقلبِك!» وهو بموضع مرتفـع على البيت الذى يرومون فيـه عَمَلَهم؛ وأبو إبراهيم فى ذلك كلِّه يقول عند محاورتهم كالمخاطِـب للبـارئ: «يا مَنْ يَـرَى ولا يُرَى!» وهـو يعنى بذلك باديس جدَّنـا الذى يَرَاهم ولا يَرَوْنَـه. فشـكر ذلك باديس * [ق ١٣ أ] لأبى إبراهيم، وأيقـن بِثِقَته وأَمانته. وصار له خادمًا من ذلك النهار؛ وشاوَرَه فى أكثر رأْيه مع بنى عمِّه.

وكان فى اليهودىّ من الكيس والمُداراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذى كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم. فاستعمله لذلك استيحاشاً من غيره، ولِماَ كان يَرَى من طَلَب بنى عمِّه له، ولأنّ هذا يهوديٌّ ذِمّيٌّ، لا تشرهُ نفسُه إلى ولاية، ولا هو أَنْدَلُسِيٌّ، فيتَّقَى منه إدخالَ داخِلةٍ مع غير جنسه من السلاطين، ولاحتياجه إلى الأموال التى يطبى بها بنى عمّه، ويحاول بها أَمْرَ المُلْك، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك معها الآمال. ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِم فى حِقّ ولا باطِلٍ، ولأنّ الرعايا أكْثَرُهم بتلك البلدة، والعُمَّال إنّما كانوا يَهُوداً؛ فكان يُجبى منهم الأموالَ ويعطيه؛ فيلقى ظالمًا منهم إلى ظلمةٍ، يأخذ منهم ما [يملأ به] بيت المال؛ وإقامة أود المملكة أَوْلَى به منهم.

١٦ - فشل المؤامرة التى دبَّرها يَدِّير بن حُبَاسة ضدَّ باديس

فلما ولى باديس، كَثُرَ عليه الخلافُ والهَرَجُ، واتفّق رأيُهم على ما قدَّمنا على قتله وتولية يَدِّير. وأعطى على ذلك أقوامًا المثاقيلَ والصكوكَ بالإنزالات القويَّة.

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضِع يُعرف بالرَّمْلة، وبإزائها مُنْيَةٌ كان يحكم بها حَبُوس أبوه؛ وكان لها بابانِ، [فاتفقوا] على أن يقيموا المَلْعَبَ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المَنْيَة، وهُمْ قد تسلّحوا بالدروع من تحت الثياب، عازمين على الشرّ.

وكان ممَّن ارْتُشِيَ على ذلك شيخٌ من صِنْهاجة يُعْرَف بفرْقَان، أُعْطِى خمسمائة مثقال وصَكًا بقَرْيَةٍ قُولْجَر من عَمَل السَّطح. فقال فى نفسه: «لم أَجِدْ فُرْصةً نحظى بها عند باديس أَمْكَنَ * [ق ١٣ ب] من هذه» فجعل أنَّ الفَرَسَ زَادَ به فى جَرْيِهِ، كأنّه جمح، حتى دخل المُنْيَة، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب؛ فقال له مختلِسًا: «انْجُ بنفسك واُخرُجْ من الباب الآخر! فإنَّ الملأَ يأتمرون بك ليقتلوك!» وأراه الدنانيرَ التى أُعطى على ذلك. فخرج باديس من الباب الآخر، يجدُّ فى السير إلى قَصَبَتِهِ؛ وهُمْ لا يشعرون، ينتظرونه.

فبينما هُمْ على ذلك، إذا بعَلِيٍّ بن القَرَوِىّ وأصحابه من وزراءِ باديس وثِقاتِهِ قد أقبلوا إليهم؛ فقالوا لهم: «إنَّ السلطان وَرَدَ عليه من بعض أَنْظاره خَبَرٌ مُقْلِقٌ وجب الانصراف له؛ فاعذِروه فى تخلفه عنكم! ومع هذا، فإنّه لم يَخْفَ عليه شىءٌ!» فلما سمع القومُ بذلك، فكلُّ من كان فى نفسه خَبَرٌ هرب على المقام، وهرب يَدِّيرُ بنُ حُبَاسة، لايلتفتون على شىءٍ، يطلبون النجاة بمُهَجِهم.

ثمَّ افتضحت القضايا كلها لباديس من بعد هروبه؛ ومشى اليه بالنصائح كثيرٌ ممَّن بغاهُ قبل ذلك. وطلع إليه أَخُوهُ بُلُقِّين، وبكى بين يديه، وسأله العَفْوَ عمّا أَدْخَلَهُ فيه الفاسِقُ ابنُ عمّه، وأنّه لم يَزَلْ به أَبَدًا يروم ذلك منه لولا تَثَبُّتُه وشفقته عليه. وإنَّ يَدِّير خرج عن البلدة، وصار فى حيِّز الأعداءِ؛ وكل رئيسٍ قد انتدب إلى فِتْنة جدِّنا – رحمه الله – ينحازُ هو إليه، ويصير من أعوانه وعلى أجناده، يَدُلّ بهم البَلَد، ويُريهم المَخادِعَ، ويكشف لهم من عَوْرات الجهة ما خَفِيَ عنهم، لا يفترُ بالضرب عليه وتَهْتِيكِ بلاده؛ وجدُّنا فى هذا لا يأوى معه إلى راحةٍ، ولا يقرُّ به قرارٌ.

وصِنْهاجة مع هذا يخاطِبُونه، حتى إنه وقعت بيد السلطان باديس – رحمه الله – كُتُبٌ كثيرةٌ من عند صِنْهاجة إلى يَدِّيْر، تضمَّنت أَزْيَد من مائتىْ رَجُلٍ * [ق ١٤ أ] من الأكابر. فغضب لذلك، وهَمَّ بقتلهم. وشاوَرَ أبا إبراهيم فى الأمر، فقال له: «أرى من الرأى ألاّ تُؤَنِّبَ أَحَدًا على هذه الكُتُب، ولا تعلمهم أنَّها صارت إليك. وأن تأْمُرَ الآن بنار تحرقها بها وتطفىء أَثَرَهَا؛ ورأسُ العقل مُداراةُ الناس. فإن عاقَبْتَ، كم عَسَى [أن] تُعاقِب، وهُمْ أَجْنادُك وأَجْنِحَتُك! فاحْتَلْ للأمر بغَيْر هذا الوجه!» فقبل نصيحته، واستعان ببَعْضهم على بَعْض، وأفشى فيهم العطايا؛ وضرب الابْنَ بأبيه والأخَ بأخيه.

فكان دأبُ يَدِّيْر هكذا أبدًا، لايقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سآمة ولا فترة، إلى أن أظفره الله به وصار فى ثِقَافه. وذُكِرَ أنّه مات مقروعًا حَتْفَ أَنْفه. وتأتّت الأمور لباديس من بعده، وصفا له الجوُّ.

١٧ - انتصار باديس على زُهَيْر صاحب المرِيَّة

وأوَّلُ فَتْحٍ أَفَاءَ الله عليه هزيمتُه لزُهَيْرٍ الخَصىّ والي المَرِيَّة. وكان له كاتبٌ، يُعرف بولَد عبّاس، من أشدّ الناس حماقةً واستخفافًا، مُثيرًا للشرّ، مؤرِّشًا بين الملوك؛ وكان الغالِبَ على أمر زُهَيْر، إذ لم يكن زُهَيْر يصلح لشيء لغباوته وجَهْله. وكان قد جمع كلَّ خَصيٍّ بالأنْدَلُس واحتفل؛ فبالغَ. وأدركه الطمع فى غَرْناطة، لِمَا بلغه من موت حَبُوس بن ماكْسَن. فأتى حتى نزل على مقربة منها، بموضع يُعرف بالفُونت، محتقرًا لمن وَلِىَ غرناطة، يزعم أنَّهم أصاغِرُ وأمْرُهم مختلّ بْعد حَبُوس، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلاك جنسِّيه الخصيان.

وكان جدُّنا باديس – رحمه الله – قد أرى عند ذلك رُؤْيَا أنَّ الحَوْرَ بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه؛ فهالَهُ ذلك، وخشى أن تكون الوقيعة عليه، فأرسل فى المُعَبِّر وقصَّ عليه. فقال له المُعَبِّر: «أبشِرْ بهذه الرُّؤيَا! إنَّ الحَوْر شبيهٌ بالخصيان، الذى * [ق ١٤ ب] لا طَعْمَ له، ولا أصل يتورَّك عليه؛ وهُمْ بهذه المرتبة. ولا شكَّ فى سقوطهم وبوارهم على يديك!» فكان ذلك.

وقدَّم على العساكر أخاه بُلُقِّين؛ وكان من أشجع الناس؛ وكان باديس، عند موت أبيه، قد اختصَّه بكلِّ ما شاءَ وفَضَّلَه فى الميراث على نفسه إلاّ الناضَّ الذى تحتاجُهُ المملكة. فلقى العسكر المرذول؛ فلم تكن إلاّ ساعة من النهار حتَّى انهزم وقُتِل جميعُ من كان فيه الخصيان، وخفى زُهَيْر عن العسكر؛ فلم يوجد حيًّا ولا ميِّتًا. وكانت تلك أوَّلَ سعادة باديس، كما كانت هزيمة المُرْتَضَى أوَّل سعادة أبيه، ثمَّ افتتح البلاد، وصارت إليه الأنظار التى تَلِي المَرِيَّة. وظفر بعدوِّه كاتِبِ زُهَيْر، وأمر بقتله متأوِّلاً لإثارته الفتنة، ونقم عليه أشياءَ كثيرةً قَبْل ذلك، من أقاويل خَشِنة ومُعامَلات قبيحة عَرَّفَهُ بها.

وقرَّ مُلْكُ باديس جدِّنا قرارَهُ، وطار له الذِّكْرُ. وكانت له من الهَيْبَة فى الناس أن لم يَجْتَرِىء عليه أحَدٌ بعد تلك القضيَّة.

ثمَّ إنَّ بُلُقّين أخاه لم يلبث بعد تلك الوقيعة إلاّ يسيرًا حتّى مات – رحمه الله – وكَبِرت سنُّ سَيْف الدولة فى حال الحداثة، وهو أبونا وترك عمُّه بُلُقّين ابنًا كان يناوئُه ويخشى منه ضرًّا كثيرًا، ويتوقّع على نفسه من المُطالَبات بتلك الأخبار، فخرج عن البلد بجميع مالِهِ وتركةِ أبيه، لم يعترض له شيءٌ.

١٨ - شخصيّة الأمير بُلُقّين سَيْف الدولة والد المؤلّف

ولم يكن للمُظفّر جدّنا غير بُلُقّين أبينا – رحمهم الله –. وكان رفيقًا به، مشفقًا عليه، حَذِرا من أعدائه وبنى عمّه أن يُبلغوه من بعده بما بُولِغَ هو به بعد وفاة أبيه؛ فكان لا يحسُّ من أحَدٍ داخِلةً ولا نفاقًا إلاّ ونظر فيه بما يوافق أمْره من إخمالٍ أو نَفْيٍ أو أخْذِ مالٍ، لئلاّ يبقى لابنه مَنْ يُناوئهُ ويُذِلُّه.

وكان سَيف الدولة حليمًا [ق ١٥ أ] رَفيقًا، ضدَّ أبيه فى كلّ حال؛ فإنّه لم يجرِّبْ من الأمر، ولا ابتُلِىَ بما ابتُلِىَ هو به. وكان يَعِدُ الناسَ بالجميل، ويقول لهم: «أنا أنسيكم طريقةَ أبى!» ومن استجوب من أبيه القتل أو أدْنَى ضَرَر؛ كان هو الذى يعنى بأمره، ويتشفّع فيه عند الأب، حتّى يتخلّصه. فأجمع الناس على محبّته خاصّةً وعامّةً للذى يرون من مَكارِمه، مع تمكين أبيه له وبَسْطِ يده على الأموال.

١٩ - نشاط يوسُف بن نَغْزالَة اليهودىّ ومؤامراته

وكان فى زمانه للمُظَفّر أبيه وَزِيران ابنا القَرَوىّ: أحَدُهما علىٌّ، والآخر عبد الله، ممن نشأ معه؛ وكانا حَضِيرَيْهِ فى المكتب؛ وكانا قائدَى العسكر؛ وإليهما كان يرجع الرأىُ فى أُمور الفِتَن[1]. وكان أبو إبراهيم الشيخُ مُؤْذِنًا لهما، مستعينًا بهما.

فلما توفّى أبو إبراهيم، وترك ابْنَهُ وزيرَ جدّنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرةً، ووصّاهُ بأن يسعى فى طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التى منها يكون حَتْفُ كلّ واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستِئْثارهم بالجبايات.

فجعل الخنزير نَفْسَه لذلك. وكان المُظَفّر – رحمه الله – لا يقبل منه مُطالَبةً لمُسْلِم، ولا عرْضه لذلك، غير أنّه كان يتلطّف بالأموال، ويعطى لثِقاتِه وعَبيدِه ما يجعلهم فى المُطالَبة علىً هواهُ، وهو ساكتٌ، لا يتكلّم بشىءٍ مثل أن يَدُسَّ فى طَلَب أحَدٍ على يدىْ مُوَفَّق الخصىّ صاحِب المدينة من ثِقات باديس؛ وكان منتصبًا لهذه المشابه؛ فيأتى مُوَفّق المذكور بنصيحة إلى السلطان ممّن يزعم أنّه من أهل الشرّ، فيُرْسِل فى اليهودىّ ويُقال له: بلغنى أمرٌ كذا وكذا.» فيُريه اليهودىُّ التبرُّؤَ من ذلك بأن يقول له: «كلُّ ما نُقِل إليك [ق ١٥ ب] كذبٌ: فتثَّبتْ[2]» فيقول له الرئيس:

---

(١) أصل: «الفتون».

(٢) أصل: «التبرئ».

«أخْبَرَنى مَنْ لا شكَّ عندى فى نصيحته!» فكان آخرُ ما يقول له: «ما قَطَعُ الشرّ إلاّ سياسةٌ!» وكان لمُباهاتِه ومَخْرَقِتِه، يُرى الناسَ أنَّه يقدر؛ ولم يكن ذلك سنه، إلاّ عن تحيُّلٍ ومكر.

فلما توُفى أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنُه فى سنِّ الصبا، كَره توليتَه جدُّنا، وقال لعلىّ المذكور: «التزِمْ خِدْمَة المملكة، فأنْتَ أحقُّ بها!» فأَبى ذلك علىٌّ. واصطفاهُ وَلَدُ أبى إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أرغبُ إلاّ أن أكونَ عَبْدَك وتَرْبيَتَك؛ ولك الأمرُ، وأنا كاتبٌ بين يديك، وأقوم بنَفَقَتك كلِّها، ولَوْ كان أهْلُكَ عَدَدَ الحَصَى!» فطمع علىٌّ فى قوله، وكلَّم السلطان فى ذلك، وقال له: «إن أبْقَيتَ على وَلَد أبى إبراهيم ناصِحك، فأنا أرجو ذلك لوَلَدى من بعدى؛ وأنا المُشْرِفُ عليه.» ففعل السلطان ما قال، وقدَّمه على العُمَّال والجبايات. وكان يعطى لعلىٍّ صدراً من دولته إلى أن كَبِرَتْ سنه.

وأظهر [ولَدُ أبى إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةً حظِىَ بها عنده، وتَبَرّمَكَ على علىٍّ وغيره، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأل به عن علىٍّ ولا عن أحدٍ من خلق الله. وكان فيما قال له: «إنَّ الذى يأخذ علىٌّ أنْتَ أولىٍ به؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والضَّفَف، ويذهب مالُك إن لم تَحْمِنى وتعضدنى. وهو متى تملأ، طَمِع فى مُلْكك! وأنا رجلٌ ذِمّىٌّ لا همةَ لى إلاّ خِدْمَتك وجَمْع الدراهم لبيت مالك!» فوَثِقَ الرئيس بقوله، وقاس عليه بعقله، ومنع منه عليًّا وجميعَ الناس. ولما رأى علىٌّ تأخُّرَهُ وتَقَدُّم اليهودىِّ، ندم ما كان منه أوّلاً؛ وفاتَهُ من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان؛ وغَاظَه ذلك وأكْرَبَهُ.

وكانت مَدينةُ وادِى آش *[ق ١٦ أ] بيَدِهِ، قد قدَّم عليها أخاه عبدَ الله؛ وكان يأكُلُها طعمةً، ولا يعطى منها فوق خمسة ألف دينار دَرَاهِم، وهى تُساوِى أزْيَد من مائة ألف دينار ثُلُثِيَّة. فدخل عليه اليهودىُّ بهذه المُطالبة وقال للسلطان: «اقبض وادى آش مَنْ عنده، ولك منِّى فيها أزيد من مائة ألف!» فقال له: «لستُ أقدر على أخْذها منه بهذا الوجه؛ فتكون مفاسدةً، وهم متصرِّفون فى خِدْمَتها». فوجد اليهودىُّ السبيلَ إلى حيلة فى نزعها باسْم سيف الدولة أبينا، وقال: «لآخُذَنَّ البلدة من يد عدوٍّ، فأضعُها فى يد سلطان يشكرنى عليها، ويَرَى لى ذلك عن تخدُّم ونصيحة!» فقال لأبى: «إنه يلزمنى طاعتُك ونصيحتُك لأكون لك كالذى أنا لأبيك؛ وأراك كثيرَ الذُّرِّيَّة، تلزمك نفَقَات وتجمُّل الرياسة؛ ومن الغبن أن يكون وزراءُ والِدَك أغنى منك! وهذه وادى آش، بِنْتُ غرناطة، لا تجمل إلاّ لك، وأنا أُثَمِّرُها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف!» ففرح لقوله والِدِى – رحمه الله –، وشكر له رأْيه، ووعده بالزيادة فى مرتبته إن صار الأمرُ إليه. ثمّ مضى إلى الوالِد؛ فأخبره الخَبرَ، وقصَّ عليه أمْرَ ابنه؛ فقال له المُظَفَّر: «الآن وجب أخْذُها من أولاد القَرَوِىّ.» فأرسل على المقام فى علىٍّ وقال له: «إنّ ابنى محتاجٌ إلى المال، وطلب منِّى وادى آش. ولو كنت آخِذَها منك ومُعْطِيَها لقِرْنك، لَعَزَّ عليك!

ولكن يجب لك أن تتسرَّع بها لابنْى.» فلم يكن جواب علىٍّ إلاّ أن قال له: «ما صَلُح للمَوْلَى على العَبْدِ حَرَامٌ!» فضمَّها اليهوديُّ خادِمًا لأبى فيها، وشرط عليه أن يعطيه رَسْمَها فى أنْجُم العام؛ واتفقَا على ذلك * [ق ١٦ ب]. وصارت المودَّة متمكِّنة بين الابْن والوزير مُدَّةً طويلةً.

٢٠ - موت الأمير بُلُقِّين مسمومًا

فلما رأى وزراءُ الدولة وعلىٌّ وأخوه تَمَكُّن اليهوديِّ عند السلطان وعند الابْن، أغاظهم ذلك وأقْلَقَهم، وبلغ منهم كلَّ مبلغ. وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أبينا. وكان أولاد على وعبد الله وزَرَاءَ لسَيْف الدولة ونُدَماءَ، لا يُفارقونه. فعملوا عليه من كلِّ وجه بأنفسهم ومع بنيهم، وقالوا لسَيْف الدولة: «إنَّ الأموال التى يغنم اليهوديُّ ويستأثر بها، أنتَ أحَقُّ بها وأوْلَى. وقد أخَملَك وأخمل الدولة أجمع! ولو أنّك قَتَلْتَه، لم يقلْ لك أبوك فى ذلك شيئًا! وما عسى أن يصنع بابنه؟» أرادوا - الفَسَقة - قَتْلَ عدوِّهم على يدى ابن الرئيس، ليخرجوا أيديهم من المسألة: فإن عاقَبَ، عاقَبَ ابنَهُ، إن شاءَ، وحصَّلوا على الدولة دون ملامة من السلطان. فلم يزالوا به أبدًا، ينمُّون باليهوديِّ، ويكذبون عليه، ويمضون[1] إلى اليهوديِّ بالكذب على لسانه، حتّى تغيَّر أبونا عليه وتغيَّرت له نفسُ اليهوديِّ، مع قلّة تجارب سَيْف الدولة لمكايد الناس. فعمل على قتله؛ وكان يتحدَّث بذلك، ويفشى سرَّه إلى الوزراء الرافعين إليه؛ فلا هو يعزم على قتله، ولا هو يتكتَّم بالأمر، إلى أن صحَّ ذلك عند اليهوديِّ، واعتزم رأيُه على أنْ يسبقه بالأمر، ورأى عيانًا تغيُّره عليه. وكان أبونا، لمّا همَّ بقتله، وأعَدَّ لذلك عبيدَه، فكَّر فى سطوة أبيه؛ فكَفَّ.

وكان لسَيْف الدولة أَخٌ صغيرٌ اسْمُه مَاكْسَن، عُمِّنا الشهيدُ فى وقيعة بَطَلْيَوْس فعمل الخنزير رأيَه مع مَشْيَخَة اليَهُود، * [ق ١٧ أ] وأخْبَرَهم بتغيُّر سيف الدولة عليه؛ فقال له أَحَدُهُمْ وأدْهَاهُم رأيًا: «لا تطمع فى الفلاح بعد الشيخ، ولا فى سَيْف الدولة! ولكن انظُرْ لنفسك فيمَنْ تُقِيمُ إن مات رَئيسُك: أوجَدْتَهُ؟ وتحيَّلْ فى سَقْى سيف الدولة. وهذا مَاكْسَن أخوهُ مخمولٌ؛ فإنْ قَتَلْتَ أنت هذا، ووَلَّيْتَ هذا، قدَّمْتَ عنده يدًا لا ينساك عليها!» فسوَّلَتْ له نفسُه سَقْيَهُ. وكان متمكِّنًا بذلك، لأنَّ أبانا كان كثير الشرب معه والتكرارِ عليه فى منزله. فشرب يومًا عنده على عادته؛ فلم يخرج عنه حتّى قذف ما كان فى جوفه؛ واستلقى على الأرض؛ فلم يَسْتطِع المشى إلى منزله إلّا عن مشقَّة؛ ولبث يومَيْن يجود بنفسه، حتّى مات- رحمة الله عليه.

ولقد سمعت كبيرًا من خِصْيان باديس يقول: «أرْسَلَ فىَّ سَيْفُ الدولة يومًا وقال لى: «انهضْ إلى أُمَّهَاتِى وقُلْ لهنَّ[2] إنّى اعتزمتُ على قتل اليهوديِّ.» يقول الخَصِىُّ: «فقلتُ له: «أنا أمضى بهذه الرسالة! فإنَّ الخَبَرَ لا مَحَالةَ عنده! لو أنَّك تريد قَتْلَهُ، ما كان ينبغى لك أن تُسْمِعَنى ذلك ولا أَحَدًا من خلق الله!» فعلمتُ أنَّ حاله تَؤُولُ إلى مثل ذلك.» .

(١) أصل: «ويمضوا .
(٢) أصل: «لهم» .

ومِمّا أَعان على الفساد قَبْلَ ذلك أنّ أبانا كان مع أُمَّهَاتِهِ، اللّائى رَبَّيْنَ وَلَدَهُ المُعِزَّ أَخانا، على ضدٍّ من الأَمْن، لإفراغِهِنَّ المال على ابنه طفْلاً صغيرًا ومَنْعِهِ هو منه. فاحتاج إلى اليهوديّ عن المال. وكان أُمَّهَاتُهُ يُطالِبْنَهُ ويمنَعْنَهُ عن صحبة اليهوديّ. حتى شعَرا بذلك؛ واتفَّق رأيُهُما على مُطالبة النساءِ عند الرئيس، وتجريحهنَّ بسرقة المال وإرسالِهِ إلى البلاد. فلما وقف جدُّنا على المقالة، وقد وقعت المفاسدة بينهُنَّ وبين ابنِهِنَّ، صار مَلُومًا * [ق ١٧ ب] من الأب والنساءِ. وتحيَّل النساءُ على أن بَرَّأْنَ(١) أَنْفُسَهن ممَّا قُذِفْنَ به؛ ودَعَت الضرورةُ سَيْف الدولة أن يتصالح مع النساءِ لرجوع أبيه معهُنَّ؛ ورُدَّت القصَّة فى رأس اليهوديّ. فكان ذلك ممَّا زادهٍ غائلةً ونفورًا، وجرى على يديه ما قدَّر الله به لتمام المُدَّة.

وكان فى أوَّل المفاسدة احتبس له بكثيرٍ من جباية وادى آش؛ وشكا به سَيْفُ الدولة لأبيه. فتحيَّل الخنزيرُ على أن دعا أبانا إلى منزله لشرابٍ، حتّى سكر؛ وأَمَرَ بخروج بنيه وعياله فى ثياب الحزن. فهالَ ذلك أبانا لِمَا رأى من حالهم وبكائهم، إلى أن قال له: «هل مات عندك أَحَدٌ؟» فقال له: «مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلّا بمَطْلِ الرعيَّة! وهذا يومٌ طيِّبٌ: فأْنِسْ أَهْلى بكَتْب براءَةٍ تبرِّئنى بها إلى أن يَرِدَكَ مالكَ، فإنَّهم قد وجسَتْ نفوسُهم وفزعوا. فأتِمَّ إحسانَك بكَتْب البراءَة!» فافْتَرَصَه فيها، وكتبها؛ ثمَّ ذهب بها إلى أبيه وقال له: «إنَّما ينفق ما لَهُ على الوزراءِ والشرابِ المُدْمِنِ! وهذا إبْراؤه لى: فأينَ شكواه؟» فرجع مَلُومًا من الأَب زائدًا، وصار فى خسارة مع الوزير والنساءِ، لِمَا أراد الله من تمام المدَّة. والله ينفعه بجميل نيَّته وصَفَاءِ مَذْهَبه للخاصَّة والعامَّة!

٢١ - ما بلغ ابن نَغْزالَة من المكان الأرفع

فلما توفِّى أبونا، وكانت من أكبر الرزايا للناس، لِمَا كانوا يرجونه من العدل على يدَيْه، هاج النّاسُ بأمره، وهمُّوا بقتل اليهوديّ. وكانت تلك مقدِّماتٌ لهلاكه، غير أنَّهم كانوا يتوقَّعون معاقبة الرئيس. وزاد فى طَلَبه لأولاد القَرَوىّ، وصوَّر عند المُظَفَّر أن بنيه زيَّنوا لابنه الإدمان على الخمر حتَّى هلك. وأدركتْ لذلك أولادَ القَرَوىّ منحسةٌ عظيمةٌ من نَفْيهم عن أوطانهم، وأَخْذِ أَموالهم، وقَتْلِ بعض الوزراءِ * [ق ١٨ ب] الذين كانوا حَوَالَىْ أبينا لِمَا اتُّهِمُوا به؛ وجانِى القضية لا يُوبَهُ له. وتَبَرْمَكَ اليهوديُّ بعد سَيْف الدولة، وسعى فى إقامة مَاكِسن عنَّا.

وكَبِرتْ عند ذلك سنُّ جدِّنا، وأَخْلَدَ إلى الراحة، وزَهِدَ فى طَلَب البلاد لكبر سنِّه وموت ابنه، وألقى بمقاليده إلى اليهوديّ فى الخدمة عنه؛ فتمكن بما شاءَ من الأمر والنَّهْى.

٢٢ - استيلاءُ باديس على مالَقة

وإنَّما كان طَلَب جدِّنا أَكْثَرُهُ وسعيه على أَخْذ مالَقة؛ فإنَّه، متى كان يأخذ شيئًا من مَعاقِل الأَنْدَلُس، يبلغه من المُعِزّ بن باديس أنَّه يقول: «يخاطِبُنى صاحبُ غرناطة بأَخْذ الكُوَر والقُرَى!

(١) أصل: «برين».

أمَا أنَّه لو أَخَذَ مثل قُرْطُبة ومالَقة وما أشبههما من القواعد، كُنّا نبايع له في ذلك!» فجعله كلامُه يجدُّ في خبرِ مالَقة، وللّذي كان يرَى من اندبار سلاطينها، وتوقّعِه على أن يأخذ البلدةَ مَنْ يُدْخل عليه الداخِلةَ منها. فلم يزل يعاودُها سِنين[1] بلا سآمة ولا فترة، حتى حصل عليها.

وبنى قَصَبتها بنيانًا لم يقدر على مثله أحَدٌ في زمانه، وأعَدَّها عُدّةً للمُهمَّات، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه، وزاد عليه، وكان الذي يتوقّع من كَلَب سلاطين الأنْدَلُس واتفاقهم عليه لذلك أن يتحصّن فيها ما استطاع، وإلّا، فيجوز منها إلى عِدوة بني عمّه بأهْله وذخائره ومُذْ أَخَذَها، حلَّ عن نفسه.

ونازَعَهُ عليها ابنُ عَبَّاد، وأطاعَهُ أَهْلُها دون القَصَبة؛ فوجَّه إليها عساكِرَه، وهزمه عليها. ورجعَــتْ إليــه بعد اليأس منها. ولم يُلاقِ ســلطانٌ على مدينةٍ ما لاقى هو على مالَقة من طول الفِتَن ونفقة الأموال. فلما بلغ منها الغاية من آماله، حلَّ على نفسه، وتمتّع بمُلْكه. ومن ذلك دخلت عليه الدواخِلُ باستنامته إلى الوزراءِ وولاةِ البلاد، على حسب ما نقُصُّه بعد هذا.

ولولا ما كان غَرَضُنا وَصْفَ دولتنا خاصَّةً، لذَكَرْنا لُمَعاً من دُوَل بني حَمُّود في مالَقة، واختلالِ أمْرهـم [ق ١٨ ب] واحِـدًا بعد واحد، حتى تصيَّر الأَمْرُ إلى جدِّنا – رحمه الله –؛ لكن نقتصر على ذِكْر مـا نـحـتـاج إلى إيراده إن شاء الله.

فتهدَّنــت الحال، وتأتّت الســعادات، وامتلأتْ بيوتُ الأموال سِــنِين[2] لا يُســمع فيها بفِتْنــة، ولا يُــرَى معهــا تشــغيبٌ؛ إلــى أن اختلّت الأحوال بعــد ذلك بمــا كان من نفاق اليهوديِّ – لعنه الله –، وتَصْيير وادي آش وجميع أنظارها لابن صُمادِح، واستِئْســادِ الرؤَساء على البلاد، حتّى إنّه لم يَبْقَ لنا أكثر من غرناطة والمُنكَّب وباغُه وقَبْرة. ولما شاع عند الرعايا خبر الرئيس الأجَلِّ – فإنّه كان مُحْتجاً أبدًا – خَلَت المعَاقِل من الرجال، وافترصَتْها الرعايا بأسبابٍ نَحْنُ نَذْكُرُها[3] إن شاء الله بعد هذا.

٢٣ - علاقات باديس ببني صُمادِح أصحاب المَرِيَّة

والأَوْلَى أن نقدّم وَصْفَ ولايةِ ابن صُمادِح للمَرِيَّة، وعضدَ جدِّنا –رحمه الله– لرياسته، وإثباتَه له في مُلْكه عند قيام ابن أبي عامِر عليه، طالبًا له لخلافه عليه، وأيادي كريمة ســلَفَتْ من المُظَفَّر قبله، لم يسبقْه إليها أَحَدٌ من جنسه، ولم تكن مكافأتُه على ذلك إلّا أن افترض بلادَه وقَبِل دواخِل إلى الإفْرَنْج، يَعِدُهم بالمال الكثير. وأجابَهُ مُجاهِدٌ لِما أشــار به عليه؛ وعملت الكلمةُ في نفسه؛ فلما هَمَّ ابن أبي عامِر بالرجوع عن لُرْقة يُريد المَرِيَّةَ، تأَخَّرَ عنه مُجاهِدٌ، وتبيَّنَ للمَنْصُور قعودُه عنه وخذلانُه إيّاه، وســألَهُ عــن ذلك. فقال مُجاهِدٌ مُخاطِباً له ولأعلام قوّاده: «يــا قوم. إن كنتم لا تعرفــون البَرْبَر، ولا جرَّبْتُم حُروبَهم، فأنا، والله. عليمٌ بها! فإيّاكم أن

(١) أصل: «سنينا».

(٢) أصل: «سنينا».

(٣) أصل: «ذاكرها».

يكون بَوَارُكم على أَيديهم. وأنتُم [ستعلمون] أنَّ فِتْنة عشرين سنة خيرٌ من ملاقاة ساعةٍ واحدةٍ، فإنَّ فيها تتلف الدُّوَل، وينتقل المُلْك، ويستأْصل الجمع. فعليكم بالتأَنِّي» فقال له ابن أبي عامر: «جَبُنْتَ! ارجِعْ إلى دانيةَ ولا تفسد عليَّ الجيش!» فأقلع على المقام مغضبًا من قذفه.

وجزع الناس بزوال مُجاهِدٍ عنهم، وأَدرَك * [ق ١٩ أ] الإفْرَنْج الطمعُ، وطلبوا منه ما لا قدرة له به. وانصرف خاسئًا.

وجمع المُظَفَّرُ رجالَه وقال لهم: «كيف تَرَوْن هزيمة هذا العَسْكَر من غير قِتال؟» فأجابوه أن: «قد وُفِّقْتَ! وأنتُم، مَعْشَرَ الملوك، لم تُعْطوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها، وجعل عقولكم أَجَلَّ وأَنْفَسَ من عقول الناس؛ وبذلك فضَّلتم من دونكم!» ورجع المُظَفَّرُ غالبًا منصورًا. وصار أبو الأحْوَص [بن صُمادِح] طاعةً له؛ لا يروم شيئًا من كل ما بالمَرِيَّة إلّا وصار إليه، ولا يأمر فيها بأمْر إلّا وكان مِلْكَ يَدَيْه. وبقى الأمرُ على ذلك سنينَ.

وكانت قُرْطُبة فى ذلك الزمان بمنزلة المَريَّة، إذ كان فيها ابنُ السَّقَّاء، لا يمتنع على المُظَفَّر من رغباته فيها شيءٌ؛ إلى أن توُفِّىأبو الأحْوَص، وترك ابنه هذا المتوَفَّى بالمريَّة – رحمه الله– عند ظهور المرابطين عليها، وهو إذ ذاك صغير السنِّ. فأرسل إلى المُظَفَّر يرغب إليه أن يكون له فى العضد والحماية بالمنزلة التى كان عليها لأبيه، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ انقيادًا من أبيه؛ وسأَلَهُ تجديد العَهْد معه والاجتماع به. فأجابه المُظَفَّر إلى كلِّ ما سأَل، ووعَدَه بالذبِّ عنه على أَتمِّ ما كان عليه لأبيه، واجتمع به.

وجدَّد معه عَقْدًا. وثبتَتْ رياستُه، وقَرَّ حاله قراره، ودامَا على ذلك دَهْرًا طويلًا، لا يُسمع فيها بِفتْنة، ولا يكابد معها تشغيبٌ.

وكان فى ذلك [الوقت] خدَّامُ دَوْلَتنا مُتَّفقين مع اليهودىِّ، إذ كان وزيرَ السلطان وصاحبَ سرِّه: فمِنهم صَنيعَةٌ له قد استغْنَى معه، ومنهم عَدُوٌّ له، مُؤَازِرٌ فى الظاهِر استدفاعًا لشرِّه. فاتَّسَقَت الأُمور بذلك، وأعان بَعْضُهم بَعْضًا على خدمة السلطان، وأَنِسُوا إلى ثِقَته بهم وعَضْدِ بعضهم لبَعْض. ولما تهيَّأَت به الأمور، وتوطدت الدولة، بعد كلِّ ما ذكرنا من تلك الفِتَن[1] وغيرها، وحصَّل على مدينة مالَقة بعد المكابدة واليأس *[ق ١٩ ب] منها، حلَّ عن نفسه، ومال إلى الراحات التى يستريح إليها الملوك، وفوَّض أمْرَه إلى الوزير والخَدَمَة.

٢٤ - وصول النَّاية إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودىّ

و فى أَمْكَنِ ما كانت الدولة وأَبْهَجِها، قصدَه النَّايَة، عبدٌ كان للمُعْتَضِد بن عَبَّاد – رحمه الله – ؛ وكان من جُمْلة من اتَّفق على غدره مع ابنه المشهور خَبَرُه؛ فأَتى للقَدَر الذى لم يكن عنه محيصٌ. واعتنى به جماعةٌ من كبار العَبيد، وطلبوا له من السلطان العَطَايا؛ فأجابهم

(١) أصل: «الفتون».

إلى ذلك تَقَمُّنًا لسـرورهم [1]، كَيْ يزيدوا في خِدْمته ونصيحتِهِ؛ وقالوا له: «قَصَدَك هذا الإنسـان عن مفاسَدِةٍ لغَيْرك وتعويلِ عليك؛ وقد أمَّلَك؛ فما تصنع فيه إنما تُسديه إلينا.» ودخل غرناطة في أسْعَدِ وقت له، وأشْغَبِهِ على الدولة. وسار في أوَّل أمره مع الخَدَمة بأجمل سيرةٍ وتواضُع لهم، حتى حمدوا طريقته، ونفعوه عند السلطان، إلى أن استعمله في بعض خِدْمَته وصرَّفه في ولاية بعض عسكره. وكان لطَلَبه الثأر من بني عَبَّاد، قد اكتفى في فِتْنة مالَقة واستمال أقوامًا من الجُنْد؛ وكان فيها مُتَصَرِّفًا بين يدي مُقاتِل بن يحيى قائدِها. ولم يزل مُقاتِلُ المذكورُ، متى خَرجَـت مُغيـرةً إلى بَلَدَ ابن عَبَّاد، يُعلم المُظَفَّرَ بكفاية النابة المذكور فيها، حتى كاد يجعل له الحسَّ كلَّه، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركًا بينهما، وصار قائدًا معه في البلدة. وزاد جِدُّه، ونَما خَيْرُه، وتَضاعَفَ إحسانُ المُظَفَّر إليه. وكان، متى ما أتى مالَقة، نزل السلطان في داره، وشرب معه، مع تنويهه به والتزيُّد له من ذلك مع الأيَّام.

وكان، مع تقريب السلطان له مَتَى انْفَرَد به أو افْتَرَصَه على الخَمر، يجرِّحُ عنده اليهوديَّ، ويقول له: «قد أكَلَ مالَكَ، وتملَّك بأعظم من مالِك، وبَنَى خَيْرًا من قَصْرك! فالله الله في إزاحتِه والتحبُّب إلى المسلمين بفَقْدِه!» والمُظَفَّرُ في هذا كلِّه يَعِدُه ويقول له: «لابُدَّ لي من ذلك، وأوَكَلُك * [ق ٢٠ أ] على قتْلِه!» فَرُبَّما لفظ بذلك بمَسـمَع من لا يُوبَه له من عبيده والمُتَصَرِّفين بين يديه؛ فينقلون ذلك علـى المقام إلى اليهـوديَّ ليَصِلَهُم عليها. فلا تزداد نفسُ الخِنْزِيـر إلاّ حماقَةً ومُنافَرَةً، ويكاد أن يموت همًّا وحنقًا، مع حسده له على المنزلة التي خُصَّ بها دونَه؛ ورام مطابته عند السلطان بكلِّ مرام؛ فلم يقبل منه. فلما رأى أنَّ منزلته لا تزداد إلَّا ترفيعًا، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان علـى هلكته، انقطع رجاؤه من كلِّ وَجْهٍ وقال: «إنَّما اسْـتِهْزَاؤُنا بالناس من أجْل عِزِّ السـلطان! وأَمِنَّاهُم على أنفُسـنا بحمايته وعنايته. وأمَّا الآنَ، فقد انقطع الرجاءُ: لا سـلطان نأْمَنُهُ [2]، وقرين سُوْءٍ يطلُبنا عنده، وعامَّةٌ تريد هلاكنا، ونَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُون في الأرض!».

٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [اليهوديُّ] قد ألقى يَدَه في عمِّنا ماكْسَن، رجاءً منه أن يسند إليه؛ فكان من أشدِّ الناس عليه، ولم يكن حَوَالَيْه رجلٌ رشـيدٌ يُسَـدِّده ويأمُرُه بالمُداراة، إلي أن قال له مواجَهَةً: «أتُرِيدُ أن تقتلني كما قَتَلْتَ أخي ؟» فعملَتْ في نفس اليهوديّ. وكان ماكْسَن مع هذا كلِّه سَيِّئَ الطَرِيقة، قليلَ البِرِّ، خَشِـنَ الكلام، يَعِدُ الناس بالشـرِّ، حتى كرِهَهُ أهْلُ دولة أبيه وأبغضوه. وكَثُرَ عليه الطَّلَبُ عند أبيه.

وكانت أُمُّهُ تَتْرُك معاملة الوزير الذي ألقى يَدَه فيه، وتَمِيلُ إلي خَالِه: يهوديٌّ يُعْرَف بأبي الربيع بن الماطُونيّ، وكان قابِضَ الوجيبة؛ فتخاطِبُهُ أبدًا، وتَطْلُبُ منه مالًا باسْـم السـلف. فغـارَ الوزيرُ لذلك، وعمـل على طَلَبه وطَلَبِ أمِّه وحاشـيتهِ، وافترى عليهم عند السـلطان.

(١) أصل: «لسارهم».
(٢) أصل: «نأمنوه».

وشـهد له على ذلك جماعةٌ من أهْل الدولة، ممَّن نقموا على ماكْسَـن قَبْلَ ذلك ما قدَّمْنا ذِكْرَه. وأغْـرىَ بهـم حتى جعلَتْه الأنفة من مكروه ما نُقِلَ إليـه أن يأمر بقَتْل أمِّه ودَاياتِهِ وبَعْضِ من انتمَى. وقتل الوزيرُ خَالَهُ غدرًا * [ق ٢٠ ب] فى منزله على الشراب لخِلافِهِ عليه فى هذا وغَيْرِه؛ واتَّقى منه نصيحة السـلطان، وأعطاه على ذلك مالًا جسـيمًا، لئلاً يثرب عليه قَتْله. فقبِلَ السلطانُ ذلك منه، ووَدَّ أن لو قَتَلَ كلَّ يوم يهوديًّا، فيُغْرِمَ عليه مالاً.

ثمَّ أمر بعد ذلك بنَفْي وَلَدِه. وكان من آكَدِ الأسباب فى نَفْيه أن خرج السلطان يومًا لعَرْض الأجناد، وقتَ الفِتْنة مع ابن صُمادِح؛ فانتدب إليه من شـيوخهم من قال له: «ما ينبغى لك أن تُقَـدِّمَ علينـا العَبِيد وغَيْرَهم، وتَتْرُكَ مثل هذا الابْن! أرْسِـلْهُ معنا، ونتَّبعه فى كلِّ مُلِمَّةٍ!» يعنى ماكْسَن. فعزَّ ذلك على أبيه، مع سَخْطه عليه لِما كان يَرَى منه ونُقِل إليه عنه، وخاف أن يكـون وراءَ هذا الكلام فعلٌ بأن يحملوه ويقدِّموا ابْنَه. وجزع اليهوديُّ لذلك جزعًا شـديدًا وقال: «ما حسـبتُ نفسى فى ذلك اليوم إلَّا مقتُولًا!» فأَعْلَمَ السلطانَ بهذه الوجوه؛ وأمر على المقام بنَفْيِه عن البلَدِ، ووجَّه معه من عبيده من يُخْرِجه عن نَظَره كلِّه. ووصَّى اليهوديُّ – لعنه الله – ذلك[1] العبد أن يَصِلَ معه إلى موضع سمَّاه بحيثُ يخفى أمْرُهُ، فيضرب فيه عنقَه.

وكان أخونـا المُعِزُّ قد ربَّاه جَدُّه، ونال معه الكرائـم، وأحَبُّوهُ فى حُرْمة أبيه. واتَّفق رأىُ الجميع مع اليهوديِّ على قَتْل ماكْسَـن وتوليةِ المُعِزِّ، حذرًا على أنفسـهم من ماكْسَن أن يثور عليهم ويعاقِبَهم بمَحَبَّتهم فى [ابن] أخيه وتَرْبِيتَهم له. فكان من ذلك ما أمَّـلُوهُ.

وخرج عَمُّنا على أسْوأ حالٍ، مذعورًا، خائفًا، بَعْضُهم يُشير بقَتْله، وبَعْضُهـم يأْبَى إلّا إزاحته عن النَّظَر كلِّه، حتَّى صار ببعض الطريق. وانحلَّ عن غمومه بهلاك اليهوديِّ، على ما نذكُرُه بعد هذا.

***

---

(١) أصل: «لذلك».